

لمحات من أطول سور القرآن بعد البقرة

سورة النساء .. وصف رباني متقن لبناء المجتمع الإسلامي وحمايته



سورة النساء مدنية، وهي أطول سور القرآن - بعد سورة البقرة - وترتيبها في النزول بعد سورة الممتحنة، التي تقول الروايات: إن بعضها نزل في غزوة الفتح في السنة الثامنة للهجرة، وبعضها نزل في غزوة الحديبية قبلها في السنة السادسة.

ولكن الأمر في ترتيب السور حسب النزول - كما بينا في مطالع الكلام على سورة البقرة في الجزء الأول - ليس قطعياً، كما أن السورة لم تكن تنزل كلها دفعة واحدة في زمن واحد، فقد كانت الآيات تنزل من سور متعددة، ثم يأس النبي -صلى الله عليه وسلم - بوضع كل منها في موضعه من سورة بذاتها والسورة الواحدة - على هذا - كانت تظل «مفتوحة» فترة من الزمان تطول أو تقصر وقد تمتد عدة سنوات وفي سورة البقرة كانت هناك آيات من أوائل ما نزل في المدينة، وآيات من أواخر ما نزل من القرآن.

وكذلك الشأن في هذه السورة فعنها ما نزل بعد سورة الممتحنة في السنة السادسة وفي السنة الثامنة كذلك. ولكن منها الكثير نزل في أوائل العهد بالهجرة. والمتنظر - على كل حال - أن يكون نزل آيات هذه السورة قد امتد من بعد غزوة أحد في السنة الثالثة الهجرية، إلى ما بعد السنة الثامنة، حين نزلت مقدمة سورة الممتحنة.

وتذكر على سبيل المثال الآية الواردة في هذه السورة عن حكم الزانيات: «واللّٰثني ياتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم، فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت، حتى يتوفاهن البوت أو يعزل الله لهن سبيلاً...» فمن القطوع به أن هذه الآية نزلت قبل آية سورة النور التي بيئت حد الزنا: «الزّانية والزّاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، إنّ كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين...» وهذه الآية الأخيرة نزلت بعد حديث الإفك في السنة الخامسة [أو في السنة الرابعة على رواية] فقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - حين نزلت: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً... إلخ. وكان السبيل هو هذا الحكم الذي تضمنته آية النور.

وفي السورة نماذج كثيرة كذا النموذج، تدل على تواريخ نزولها على وجه التقريب على النحو الذي يبناه في مطالع الكلام عن سورة البقرة.

هذه السورة تمثل جانباً من الجهد الذي أنشقه الإسلام في بناء الجماعة المسلمة، وإنشاء المجتمع الإسلامي، وفي حماية تلك الجماعة، وصيانة هذا المجتمع، وتعرض نموذجاً من فعل القرآن في المجتمع الجديد، الذي انشغل أصلاً من خلال نصوصه، والذي نشأ ابتداءً من خلال المنهج الرباني. ونصور بهذا ذلك طبيعة هذا المنهج في تعامله مع الكائن الإنساني، كما تصور طبيعة هذا المنهج، وتفاعله مع الأرض، وتحدّثها من وسائل أولئك الأعداء وفسادهم، وبيناً ما في المنهج الرباني. تتفاعل معه وهو يتقو خلاً في المرتقى الصاعد، من السفح الهابط، إلى القمة السامقة... خطوطاً، ومرحلة مرحلة... بين تجارات الطامع والشهوات والخاوف والرغائب، وبين أشواق الطريق التي لا تخلو منها خطوة واحدة، وبين الأعداء المترصين على طول الطريق الشائك! ونرى هنا مواجهة القرآن لكل المايلات المحيطة بنشأة الجماعة المسلمة في المدينة، وبيناً طبيعة المنهج الرباني الذي تنشأ الجماعة على أساسه، وتقدير الحقائق الأساسية التي يقوم عليها التصور الإسلامي، والقيم والموازين التي تنبثق من هذا التصور، وإبراز التكاليف التي يقضيها النهوض بهذه الأمانة في الأرض. وتصوير طبيعة أعداء هذا المنهج وأعداء هذه الجماعة التي تقوم عليه في الأرض، وتحدّثها من وسائل أولئك الأعداء وفسادهم، وبيناً ما في عقائدهم من زيف وانحراف، وما في وسائلهم من خسة والتواء، فتكذلك ترى القرآن - في هذه السورة - يواجه جملة هذه المايلات والحقائق.

إلا أن لكل سورة من سور القرآن شخصيتها الخاصة، وملامحها المميزة، ومجورها الذي تنشأ إليه موضوعاتها جميعاً...ومن مقتضيات الشخصية الخاصة أن تتجمل الموضوعات في كل سورة وتتناسق حول محورها في نظام خاص بها، تبرز فيه ملامحها، وتتميز به شخصيتها. كالكائن الحي

المميز السمات والملاح، وهو - مع هذا - واحد من جنسه على العموم! ونحن نرى في هذه السورة - وتكاد نحس - أنها كائن حي، يستهدف غرضاً معيناً، ويجهذ له، وينفخ في تحقيقه بشتي الوسائل...والفقرات والآيات والكلمات في السورة. هي الوسائل التي تلعب بها ما تريد! ومن ثم تستشعر تجاهها - كما نستشعر تجاه كل سورة من سور هذا القرآن - احساس التعاطف والتجاوب مع الكائن الحي، المعروف السعات، المميز للملاح، صاحب القصد والوجهة، وصاحب الحياة والحركة، وصاحب الحس والشعور!

إن السورة تعمل بجد وجهد في محو ملامح المجتمع الجاهلي - الذي منه النقطت المجموعة المسلمة - ونبدالها، وفي تكيف ملامح المجتمع المسلم، وتطويره من رواس الجاهلية فيه، وجلاد شخصيته الخاصة. كما تعمل بجد وجهد في استجاشته للدفاع عن كينونته المميزة، وذلك ببيان طبيعة المنهج الذي مته أنبثقت هذه الكينونة المميزة، والتعريف بأعدائه الراصدين له من حوله - من للشركن وأهل الكتاب وبخاصة اليهود - وأعدائه المتصميين فيه - من ضعاف الإيمان والمناقضين - وكشف وسائلهم وحيلهم ومكائدهم، وبيان فساد تصوراتهم ومفاهيمهم وطرائقهم، مع وضع الأنظمة والنشريات التي تتقدم هذا كله وتحمده، ونصبة في القالب التنفيذي المضبوط.

وفي الوقت ذاته تلحح رواس الجاهلية، وهي تتصارع مع المنهج الجديد، والقيم الجديدة، والإعتبارات الجديدة، ونرى ملامح الجاهلية وهي تحاول طمس الملاح الجديدة الوضعية الجميلة، وتشهد المعركة التي يخوضها المنهج الرباني بهذا القرآن في هذا الميدان. وهي معركة لا تقل شدة ولا عفاً ولا سعة، عن المعركة التي يخوضها في الميدان الآخر، مع الأعداء الراصدين له والأعداء المتصميين فيه!

وحيث تدقق النظر في الرواسب التي حملها المجتمع المسلم من المجتمع الجاهلي الذي منه جاء، والتي تعالج هذه السورة جوانب منها - كما تعالج سور كثيرة جوانب أخرى - قد يتألم الدمش لعقم هذه الرواسب، حتى لتظلل تغالب طوال هذه الفترة التي رجعنا أن آيات السورة كانت تنزل فيها. ومن العجب أن تظل لهذه الرواسب صلابتها حتى ذلك الوقت المتأخر... ثم يتألم الدمش كذلك للقلقة البعيدة السامقة الرقيقة التي انتهى إليها هذا العجيب الغريب المنهج الذي يملك وحده أن يلفظها من ذلك السفح الهابط، الذي تشمله تلك الرواسب، فارتقى بها في ذلك المرتقى الصاعد إلى تلك القمة السامقة. القمة التي لم ترتق إليها البشرية قط، إلا على حذاء ذلك المنهج العجيب الغريب المنهج الذي يملك وحده أن يلفظها الكينونة البشرية من ذلك السفح، فارتقى بها إلى تلك القمة، وريداً رويداً، في يسر ورفق. وفي ثبات وصبر، وفي خطو متناسق موزون!

والذي يدقق النظر في هذه الظاهرة الغريبة في تاريخ البشرية، يتجلى له

جانب من حكمة الله في اختيار «الأميين» في الجزيرة العربية، في ذلك الحين، لهذه الرسالة العظيمة، حيث يمثلون سفح الجاهلية الكاملة، بكل مقوماتها الاعتقادية والتصورية، والعقلية والفكرية، والأخلاقية والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، ليعرف فيهم أثر هذا المنهج، ولينشئ فيهم كيف يتم العجزة الخارقة، التي لا يملك أن يأتي بها منح آخر، في كل ما عرفت الأرض من مناهج، وليرسم فيهم خط هذا المنهج، بكل مراحله - من السفح إلى القمة - ويكل ظواهره، ويكل تجاربه، ولتري البشرية - في عمرها كله - أين تجد المنهج الذي يأخذ بيدها إلى القمة السامقة، إما كان موقعها في المرتقى الصاعد سواء كانت في درجة من درجاته، أم كانت في سفحه الذي النقط منه «الأميين»!

إن هذا المنهج ثابت في أصوله ومقوماته، لأنه يتعامل مع «الإنسان» وللإنسان كينونة ثابتة، فهو لا يبدل منها كينونة أخرى. وكل المحورات والتطورات التي تلابس حياته لا تغير من طبيعته، ولا تبدل من كينونته، ولا تحولها خلقاً آخر. إنما هي تغيرات وتطورات سطحية، كالأمواج في الخضم، لا تغير من طبيعته المائية، بل لا تؤثر في تياراته التحتية الدائمة، المحكومة بعوامل طبيعية ثابتة!

ومن ثم تواجه الموضوع القرآنية الثابتة، تلك الكينونة البشرية الثابتة. ولأنها من صنع المصدر الذي صنع الإنسان، فإنها تواجه حياته بظروفها المتغيرة، وأطوارها المتجددة، بنفس المرونة التي يواجه بها «الإنسان» ظروف الحياة المتغيرة، وأطوارها المتجددة، وهو محافظ على مقوماته الأساسية، مقومات الإنسان.

وفي «الإنسان» هذا الاستعداد، وهذه المرونة، وإلا ما استطاع أن يواجه ظروف الحياة وأطوارها، وهي ليست ثابتة من حوله وفي المنهج الرباني الموضوع لهذا الإنسان ذات الخصائص، يحكم أنه صادر من المصدر الذي صدر منه الإنسان، ومودع خصائصه ذاتها، ومعد للعمل معه إلى آخر الزمان.

وهكذا يستطيع ذلك المنهج، وتستطيع هذه النصوص، أن تلتقط الفرد الإنساني وأن تلتقط المجموعة الإنسانية، من أي مستوى، ومن أية درجة من درجات المرتقى الصاعد، فيتبني به وبها إلى القمة السامقة... إنه لا يرد ولا يردأ أبداً إلى الوراء، ولا يهبط به أو يها أبداً إلى درجة أسفل في المرتقى. كما أنه لا يضيق به ولا يها، ولا يعجز عن رفعه ورفعه، إما كان مكانه أو مكانها من السفح السحيق!

المجتمع البشري المختلف كالمجتمع العربي في الجاهلية القديمة، والمجتمع الصناعي المتحضر، كالمجتمع الأوروبي والأميركي في الجاهلية الحديثة... كلاهما يجد في المنهج الرباني والنصوص القرآنية مكانة، ويجد من يأخذ بيده من هذا المكان، فيرقى به في المرتقى الصاعد، إلى القمة السامقة، التي

حلقها الإسلام. في فترة حية من فترات التاريخ، إنما الجاهلية كل منهج إن الجاهلية ليست فترة ماضية من فترات التاريخ، إنما الجاهلية كل منهج تتمثل فيه عبودية البشر للبشر. وهذه الخاصية تتمثل اليوم في كل مناهج الأرض بلا استثناء. ففي كل المناهج التي تعتقها البشرية اليوم، يأخذ البشر عن بشر ملتهم: التصورات والمبادئ، والموازين والقيم، والشرائع والقوانين، والأوضاع والتقاليد، وهذه هي الجاهلية بكل مقوماتها. الجاهلية التي تتمثل فيها عبودية البشر للبشر، حيث يتعبد بعضهم بعضاً من دون الله.

والإسلام هو منهج الحياة الوحيد، الذي يتحرر فيه البشر من عبودية البشر. لأنهم يتقنون التصورات والمبادئ، والموازين والقيم، والشرائع والقوانين، والأوضاع والتقاليد، من يد الله - سبحانه - فإنما أحوار رؤوسهم فإنما يحولونها لله وحده، وإذا اطاعوا الشرائع فإنما يطيعون الله وحده، وإذا خضعوا للنظام فإنما يخضعون لله وحده. ومن ثم يتحررون حقاً من عبودية العبيد للعبيد، حين يصيحبون كلهم عبيداً لله بلا شريك.

وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية - في كل صورة من صورها - وبين الإسلام، وهذه السورة تتولى رسم مفرق الطريق بالذقة وبالوضوح الذي لا تبلى معه ريباً مستريب.

ومفهوم أن كل أمر أو شيء أو توجيه ورد في القرآن الكريم، كان يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي، وكان يتوخى إما إنشاء حالة غير قائمة، وإما إبطال حالة قائمة... وذلك دون إخلال بالقاعدة الأصولية العامة: «العبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب...» ومع ملاحظة أن النصوص القرآنية جاءت لتعمل في كل جيل وفي كل بيئة كما أسلفنا. وفي هذا تكمن العجزة. فهذه النصوص التي جاءت لتواجه أحوالاً يعينها، هي ذاتها التي تواجه الجماعة الإنسانية، في أي طور من أطوارها. والمنهج الذي النقطت المجموعة المسلمة من سفح الجاهلية، هو ذاته الذي يلتقط أية مجموعة - أياً كان موقعها على الدرج الصاعد - ثم يبلغ بها إلى القمة السامقة، التي بلغ إليها بالمجموعة الأولى، يوم انقطعا من ذلك السفح السحيق!

ومن ثم فحين حين تقرا القرآن تستطيع أن تتبين منه ملامح المجتمع الجاهلي، من خلال أوامره ونواهيه وتوجيهاته، كما تستطيع أن تتبين الملاح الجديدة التي يريد أن ينشئها، وأن يبنئها في المجتمع الجديد.

فلماذا نحن واجدون - في هذه السورة - من ملامح المجتمع الجاهلي التي ظلت راسية في الجماعة المسلمة... منذ أن انقطعا المنهج الرباني من سفح الجاهلية؟ وسأذا نحن واجدون من الملاح الجديدة التي يراد إنشاؤها في المجتمع الإسلامي الجديد وتبنيها! إننا نجد مجتمعا نؤكد فيه حقوق الأيتام - وبخاصة اليتيمات - في حجور الأهل والأولياء والأوصياء، ويستبدل الخبيث منها بالطيب، ويعمل فيها بالأسراف والطبع، خيفة أن يكبر البتاني فيستردوها! وتحبس فيه السفيرات من ذوات المال، لينتذهن الأولياء زوجات، طمعا في مايلن لا رغبة فيهن! أو يعطين لأطفال الأولياء للغرض ذاته!

ونجد مجتمعاً يجار فيه على الصغار والضعاف والنساء، فلا يسلم لهم فيه بتصميمهم الحقيقي من الميثا.

إنما يستأثر فيه بمعظم الثرة الرجال الأقوياء، القادرون على حمل السلاح، ولا ينال الضعاف فيه إلا الفتات. وهذا الفتات الذي تناله اليتيمات الصغيرات والنسوة الكبيرات، هو الذي يحتجزن من أجله، ويحبسن على الأطفال من الذكور، أو على الشيوخ من الأولياء. كي لا يخرج المال بعيداً ولا يذهب في الغرابة!

ونجد مجتمعاً يضع المرأة موضعاً غير كريم، ويعاملها بالفسخ والجور. في كل أوار حياتها، يحرمها الميثا - كما قلنا - أو يحبسها ما ينالها منه، ويورثها للرجل كما يورثه الماع لا فإذا مات زوجها جاء وليه، فألقى عليها توبه، فيعرق أنها محجوزة له، إن شاء تكحها بغير مهر، وإن شاء زوجها وأخذ مهرها! ويعطسها زوجها إذا طلقها، فبعدا له أي زوجة، ولا هي مطلقة، حتى تقدرى نفسها منه وقد أسرها!

حجة زمانه في علم الجرح والتعديل ومصطلح الحديث العلامة الشيخ الألباني محدث العصر.. والمهاجر إلى الله

وقالت له ذلك الرجل هو الشيخ الألباني.

وفاته

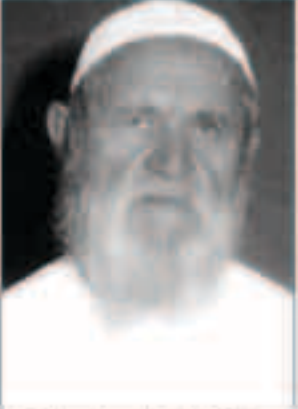
توفي العلامة الألباني قبل يوم السبت في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة 1420هـ الموافق الثاني من أكتوبر 1999، ودفن بعد صلاة العشاء.

وقد عجل بدفن الشيخ لأمرين: الأول: تنفيذ وصيته كما أمر: الثاني: الأيام التي مر بها موت هذه الأيام كانت شديدة الحرارة، فخشي أنه لو تأخر بدفنه أن تقع بعض الأضرار أو المفاصد على الناس الذين يأتون لتسليم جنازته -رحمه الله-، فذلك أوّل أن يكون دفنه سريعاً، بالرغم من عدم إعلام أحد عن وفاة الشيخ ودفنه، إلا أن آلاف المصلين قد حضروا صلاة جنازته حيث تداعى الناس بأن يعلم كل منهم أخبار.

يوتوبيا نادرة لمحدث هذه الأمة رحمة الله عليه.

رؤيا فتاة جزائرية للرسول -صلى الله عليه وسلم- في المنام وكان الرجل الشيخ.

العربية السعودية الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ عام 1388 هـ أن يتولى الإشراف على قسم الدراسات الإسلامية العليا في جامعة مكة، وقد جالت الأحيات دون تحقيق ذلك. (6) اختير عضواً للمجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة من عام 1395 هـ إلى 1398 هـ. (7) لبي دعوة من اتحاد الطلبة المسلمين في إسبانيا، والتي محاضرة مهمة طبعت فيما بعد بعنوان «الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام..» (8) زار قطر والتي فيها محاضرة بعنوان «منزلة السنة في الإسلام..» (9) انتدب من سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز -رحمه الله- رئيس إدارة البحوث العلمية والإفتاء للدعوة في مصر والمغرب وبريطانيا للدعوة إلى التوحيد والإعتصام بالكتاب والسنة والمنهج الإسلامي الحق. (10) دعى إلى عدة مؤتمرات، حضر بعضها واعتذر عن كثير بسبب اشتغالاته العلمية الكثيرة. (11) زار الكويت وإسبانيا، والتي فيها محاضرات وإشارات، وزار أيضاً عدداً من دول أوروبا، واتلقى فيها بالجاليات الإسلامية والطلبة المسلمين، والتي روسا عملية مفيدة. (12) للشيخ



الشيخ ناصر الدين الألباني

الشريعة في جامعة دمشق ليعوم بتخريج أحاديث البيوع الخاصة بموسوعة الفقه الإسلامي، التي عزم الجامعة على إصدارها عام 1955. (3) اختير عضواً في لجنة الحديث، التي شكلت في عهد الوحدة بين مصر وسورية، للإشراف على نشر كتب السنة وتحقيقتها. (4) طلبت إليه الجامعة -والتي كان «الهند» أن يولي مشيخة الحديث، فاعتذر عن ذلك لصعوبة اصطحاب الأهل والأولاد بسبب الحرب بين الهند وباكستان آنذاك. (5) طلب إليه معالي وزير المعارف في أفغكة

رفض أبوه إلحاقه بالتعليم العام بعد رحيلهم من ألبانيا إلى سورية

مطالعتة لكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهما من أعلام المدرسة السلفية.

أعماله وإنجازاته

لقد كانت للشيخ جهود علمية وخدمات عديدة منها: (1) كان شيخنا -رحمه الله- يحضر ندوات العلامة الشيخ محمد بهجت البيطار الصغير، وإبزال مخطوطا. كثير لا اشتغال الشيخ الألباني بجديد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الزره البالغ في التوجه السلفي للشيخ، وقد زاه تشيئه ولجأته في هذا المنهج

ووضع له منهجاً علمياً مركزاً قام من خلاله بتعليمه القرآن الكريم، والتجويد، والتجو، والصرف، وفقه المذهب الحنفي، وقد ختم الألباني على يده والده حفظ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم، كما درس على الشيخ سعيد البرهاني، مرافى الفلاح في الفقه الحنفي وبعض كتب اللغة والبالغة، هذا في الوقت الذي حرص فيه على حضور دروس وندوات العلامة بهجة البيطار. أخذ عن أبيه منهج إصلاح الساعات فجاءها حتى صار من أصحاب الشهرة فيها، وأخذ يتكسب رزقه منها، وقد فرقت له هذه المهنة وقتاً جيداً للمطالعة والدراسة، وحيات له هجرته للثمام معرفة باللغة العربية والإطلاع على العلوم الشرعية من مصادرنا الأصلية.

توجهه إلى علم الحديث واهتمامه به:

على الرغم من توجيه والد زافو (ملك ألبانيا) ببلاده نحو الحضارة الغربية العلمانية، اتهم العلامة الألباني دراسته الابتدائية في مدرسة الإسعاف الخيري في دمشق بتفوق. تقرأ لرائي والده الخاص في المدارس النظامية من الناحية الدينية، فقد قرر عدم إكمال الدراسة النظامية

الدين الألباني هو أحد أبرز العلماء المسلمين في العصر الحديث الذي تخصص في علوم الحديث، ويعتبر الشيخ الألباني من علماء الحديث البارزين المقربين في علم الجرح والتعديل، والشيخ الألباني حجة في مصطلح الحديث وقال عنه العلماء المحللون إنه أعاد عصر ابن حجر العسقلاني والحافظ ابن كثير وغيرهما من علماء الجرح والتعديل.

ولد الشيخ محمد ناصر الدين بن الحاج نوح الألباني عام 1333 هـ الموافق 1914 في مدينة أشقورة عاصمة دولة ألبانيا - حينئذ - عن أسرة فقيرة متدينة يغلّب عليها الطابع العلمي، فكان والده مرجعاً للناس يعلمهم ويرشدهم.

هاجر صاحب الترجمة بصحبة والده إلى دمشق الشام للاقامة الدائمة فيها بعد أن اتعرف أحمد زافو (ملك ألبانيا) ببلاده نحو الحضارة الغربية العلمانية.

اتهم العلامة الألباني دراسته الابتدائية في مدرسة الإسعاف الخيري في دمشق بتفوق. تقرأ لرائي والده الخاص في المدارس النظامية من الناحية الدينية، فقد قرر عدم إكمال الدراسة النظامية